جامعة قطر

مكتبة البنين
قسم الدوريات

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

غير مسموح بإخراجه من المكتبة

العدد الرابع عشر

١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م

سقراط ومنزلته في الفكر الفلسفي *

أ. د. فتح الله خليف
استاذ ورئيس قسم الفلسفة

كانت ندوة العام الماضي عن السوفسطائيين، وعن روح القرن الخامس قبل الميلاد في أثينا، قرن التنوير في الأدب والفلسفة، قرن يوربيدس، وسوفوكليس، والسوفسطائيين.

وأستأذنكم في أن نبقى ايضا هذا العام في هذا القرن مع سقراط، فمن غير المعقول أن نتحدث عن السوفسطائيين ونترك الرجل الذي تعتبر شخصيته، وفلسفته، ومناظراته مع السوفسطائيين علامة من علامات هذا القرن.

ونحن نقدم لكم سقراط هذه الليلة ينبغي أن نبدأ بالتسليم بأن هناك ـ وسوف يظل دائما هناك ـ ما يسميه مؤرخو الفلسفة بمشكلة سقراط.. فالرجل لم يكتب شيئا، وتلميذه الذي كتب عنه، أعنى أفلاطون، لم يكتب أبحاثا، ولكنه كتب سلسلة من المحاورات في شكل دراما، يعين فيها الزمان والمكان، وسائر الظروف، ويعرض فيها أصنافا من الأشخاص يصورهم أدق تصوير، ويدمجهم في حوادث تستحق اهتمام القارىء، وتستبقي انتباهه إلى النهاية. وأهم الأشخاص في المحاورات الأفلاطنية هو سقراط.

ومن هنا انبثقت مناقشات لا نهاية لها للتساؤل عن أقوال وآراء سقراط وتمييزها عن آراء أفلاطون.

فمن جهة لو اعتقدنا أن كل ما جاء على لسان سقراط في محاورات أفلاطون هي آراء سقراط؛ فحينئذ لا يبقى لأفلاطون شيء.

---

* الندوة العلمية لكلية الانسانيات الساعة السادسة من مساء الثلاثاء ١١/ ١١/ ٨٦ بقاعة المحاضرات العامة بمبنى تكنولوجيا التعليم.

ومن جهة أخرى لو اعتقدنا بأن كل ما جاء على لسان سقراط في محاورات أفلاطون هي آراء أفلاطون، فحينئذ يصبح سقراط وهما وبطلا أسطوريا للمحاورات الأفلاطونية من اختراع أفلاطون (١).

تلك هي مشكلة سقراط التي لم تحسم حتى اليوم بين مؤرخي الفلسفة. ففي عام ١٩٥٥ كتب أولوف جيجون Olof Gigon يقول: لقد مضى أكثر من ألفي عام في البحث في مشكلة سقراط، ومع ذلك فما زالت المشكلة بعيدة عن التناول المنهجي الصحيح. (٢)

والإجماع منعقد بين مؤرخي الفلسفة على أن الوقائع التاريخية وحدها لا تكفي لفهم سقراط، لأن تاريخ حياته مر بمراحل كثيرة من التنقيح والتعديل، والتحريف والتشويه، خلال عقول تلاميذه وخصومه إلى الحد الذي دعا بعض الفلاسفة إلى الشك في شخصية سقراط التاريخية.

إن كل ما نعرفه عن سقراط جاءنا من رجال مختلفي المشارب والأهواء: هم أرسطوفان، واكسانوفون، وأفلاطون، وأرسطو. من هؤلاء الأربعة اثنان فيلسوفان، وجنرال متقاعد، وكاتب مسرحي هزلي. هؤلاء الأربعة أصحاب المواهب المتعارضة والمشارب المختلفة، من الطبيعي أن يرى كل واحد منهم سقراط بطريقة مختلفة، ويتركوا لنا انطباعات مختلفة عنه.

فشخصية سقراط التاريخية هي أيضا مشكلة معقدة لا حل لها حتى اليوم. هي مشكلة أكثر تعقيدا من مشكلة شخصية المسيح التاريخية كما يقول: Albert Schweitzer؛ ألبرت شفيتزر لأن المسيح صوّره اشخاص من العوام لا حظ لهم من ثقافة أو علم، أما سقراط فقدّمه لنا مثقفون من الفلاسفة والأدباء، على درجة عالية من الثقافة والفهم، مارسوا قدراتهم الخلاقة في تصويره. (٣)

كل هذه المشاكل السقراطية تعني أن باب الاجتهاد ما زال متفوحا على مصراعيه أمام الباحثين والدارسين لسقراط.

لكن هذه المشاكل لا تمنعنا من أن نتعرف على الأقل على معنى سقراط عند كثير من الناس، وأثره العميق على تاريخ الفكر.

الكوميديا أو الملهاة الأثينية واحدة من أهم مصادرنا عن فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد، عن عاداتهم، وسلوكهم، وأوصافهم. جاء في رسم شخصية سقراط في واحدة من الدراما أنه شخص أحمق، جائع، حافي القدمين، رث الملبس، قدرته فائقة على التحمل والمعاناة، لا ينافق أبدا. وفي واحدة أخرى يذكر المؤلف ان سقراط لا يعرف من أين تأتيه الوجبة التالية، وهو دائما في غاية القذارة، لا يغتسل أبدا، ويضيع الوقت في جدل عقيم. (٤)

لكن مسرحية السحب لأرستوفان هي المرجع الأساسي في سقراط. فسقراط هو بطل الرواية، والشخصية الرئيسية فيها. تصوّر المسرحية سقراط معلما يأتي له تلميذ يطلب منه أن يعلمه الغش والخداع، ويشجعه الكورس على تعليم التلميذ ما يريد. ولكن سقراط لا يلتفت إلى ذلك، ويأخذ في تعليم التلميذ أمورا غير عملية وغير نافعة. فسقراط متهم في مسرحية السحب بأنه يهدر الوقت في جدل عقيم، وكثير التدقيق في كل ما يقال.

ويمثله أرستوفان في المسرحية جالسا في سلة مرفوعة في الفضاء، يناجي السحب، مأوى المفكرين الخياليين، ويتهمه بالكفر بآلهة المدينة، وبتعليم التلاميذ تغليب الباطل على الحق. ويعلن أن القصاص العادل هو قتل سقراط وتلاميذه (٥). وهكذا يصب أرستوفان على رأس سقراط كل الاتهامات والأوصاف التي نسبها أفلاطون وأرسطو بعد ذلك للسوفسطائيين. وقد ظلت هذه الاتهامات معلقة في عنق سقراط أكثر من عشرين عاما، ثم بعث بها الاثينيون إلى القضاء، فحوكم سقراط، وحكم عليه بالاعدام، وأعدم عام ٣٩٩ ق. م. وهو في سن السبعين.

أمر معلوم أن سقراط كان دميم الخلقة، كان أفطس الأنف، جاحظ العينين، منتفخ البطن، كان أقبح من كل المسوخ التي ورد وصفها في الدراما اليونانية (٦)، ولكنه كان نوعاً من القبح يدعو للعجب. فعلى الرغم من هذا القبح كان سقراط يتمتع بجاذبية شخصية طاغية، وكان تأثيره على سامعيه ومحدثيه تأثيرا فريدا. فلننظر كيف كان يقارنه أصحابه بمارسياس الذي كان ينافس الإله أبولو في العزف على الناي:

جاء على لسان واحد من تلاميذه في محاورة سيمبوزيم الأفلاطونية: «ولكنك

يا سقراط لا تعزف على الناي، وإن كان العرض الذي تقدمه أعظم دلالة، فإن مارسياس قد احتاج إلى آلة ليبهر الناس بالقوة التي تنبعث من فمه في الناي. ولكنك يا سقراط قد تفوقت على مارسياس، لأنك عملت نفس الأثر بمجرد الكلمات، وبدون استخدام آلة... انني أنا نفسي أيها السادة، وأنا في كامل وعيي، ولست سكرانا، أقسم بأيمان مغلظة بالأثر البالغ لكلمات سقراط عليّ. فكلما أنصت إليه فإن نبضات قلبي تدق مسرعة، أسرع مما يحدث لي في حفل ديني، وتنساب الدموع على وجهي، وألاحظ أن هذا الأثر يمتد إلى كل السامعين الآخرين».

ويصف تلميذٌ آخر حاله مع سقراط فيقول: «يبدو لي أنك تزاول معي السحر والعرافة والتعاويذ، حتى أُصبح وكأني كتلة لا حول لها ولا قوة. إنك تبدو تماما مثل عقرب البحر الذي يلدغ. إنك تلدغني فتخدر عقلي وشفتاي». (٧)

مما لا شك فيه أن هذه الأوصاف أعمق من مجرد الانبهار بمناظرات سقراط وأحاديثه، وتدق على الشرح، كما أنها تدعو إلى اعتبار أمر آخر أبعد من مجرد الاستدلال العقلي. ونعني بهذا الأمر علامات النبوّة التي ظهرت على سقراط والهداية الإلهية التي يصفها أفلاطون على هذا النحو في محاورة احتجاج سقراط، يقول سقراط «انني مررت بتجربة إلهية، بدأت في طفولتي، وظلت معي دائما، نوع من النداء، كلما سمعته ردني عما كنت أود أن أفعله، وأقعدني عنه، ولكنه لم يأمرني أبدا بعمل شيء». وفي موضع آخر يقول بعد صدور الحكم بإعدامه: «في الأيام الخالية كانت علامة النبوّة التي اعتدتها تمنعني من فعل أبسط الأمور، إن كنت أروم شيئا غير مناسب، واليوم نجدها لا تحول بيني وبين الخروج من بيتي إلى المحكمة، ولا بيني وبين أي كلمة قلتها في دفاعي. إنها لم تعترض على أمر من هذه الأمور المهلكة. وفي مناسبات أخرى كانت تحول بيني وبين أن أكمل جملة بدأتها».

وقد أصبحت علامة النبوّة علامة معتادة، تحدث دائما، وتبدو وكأن سقراط يسمع صوتا، وكان هذا الصوت يمنعه من قبول التلاميذ الذين لا يستطيعون الإفادة من تعاليمه، كما كان يمنعه من الاشتغال بالسياسة.

كان سقراط يستمع إلى هذا الوحي، وكان هذا الوحي هو حافظه وموجهه، وكان

يصدر في أفعاله وسلوكه بما يوحى له، ويؤمن بأن الآلهة بعثته معلما مجانيا هاديا للبشر.(٨)

إننا كفلاسفة لا نستطيع إلا أن نترك طبيعة هذا الوحي لعلماء النفس؛ فإن هذه التجربة الدينية تستلزم التفسير السيكولوجي. وهذا أمر لا يمكن القطع به على وجه اليقين، ولكننا مقتنعون بأن سقراط كان يأخذ هذا الوحي مأخذ الجد، ومن ثمة كان يؤمن بأن أنشطته التعليمية مصدرها هذا الوحي، والأمر متروك لمن يؤمن بمثل هذه النبوّات والهداية الروحية. على أننا ينبغي أن نتذكر أننا نتحدث عن العالم اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد، أي عن عالم مليء بالأساطير والنحل والآلهة الذين يسخرون كل شيء. وإن كنا نحن اليوم، بعد أكثر من ألفي عام، وبعد التقدم العلمي والتكنولوجي الذي نشهده اليوم، ما زالت الأساطير والخرافات والمعتقدات الغيبية تشغل المساحة الكبرى من التفكير الذي يوجه حياتنا.

قبل أن نستعرض الخطوط الرئيسية لتعاليم سقراط وفلسفته نقف وقفة قصيرة عند مسألتين هامتين: المسألة الأولى هي ارتباط تعاليم سقراط بملامح شخصيته وقبح خلقته. والمسألة الثانية هي المنهج السقراطي المثير القائم على إقناع الناس بجهلهم وحماقتهم.

أما المسألة الأولى فتتضح من محاورة سقراط لكريتو حول مفهوم الجمال. يدور الحوار بين الرجلين على هذا لنحو:

يسأل سقراط: هل تعتقد أن الجمال يُوجد في الانسان وحده أم يُوجد في أشياء أخرى؟

كريتو: اعتقد أنه يوجد في الحصان وفي الدرع والرمح والسيف، كما يوجد في كثير من أشياء أخرى غير حيوانية.

سقراط: كيف تكون هذه الأشياء جميلة طالما لا تشبه بعضها بعضا؟

كريتو: إن كانت هذه الأشياء مصنوعة صناعة جيدة لتؤدي الغرض الذي نرجوه منها على أكمل وجه، أو كانت ملائمة بالطبيعة لاحتياجاتنا، إذن ففي كل حالة من هاتين الحالتين نسمي الأشياء جميلة.

سقراط: حسنا، ما هي حاجتنا إلى العينين؟

كريتو: لنرى بهما طبعا.

سقراط: في هذه الحالة تجد عينيّ أجمل من عينيك، فإن عينيك لا ترى إلا أمامك بينما عينيّ ترى أمامي وترى على الجانبين، وكان سقراط أحول العينين.

كريتو: معنى ذلك ان سرطان البحر*، له أجمل عينين من أي حيوان.

سقراط: تماما، لأن الطبيعة هي التي زودته بهذه القوة الرائية من كل صوب.

كريتو: سلمنا ذلك، أي أنف أجمل، أنفي أم أنفك؟

سقراط: أنفي طبعا، إن كانت الآلهة وهبتنا الأنوف للشم، فإن فتحتي أنفك متجهة إلى أسفل، بينما تشرئب فتحتا أنفي إلى أعلى لتلقيّ الروائح من كل اتجاه.

كريتو: أما بالنسبة للفم، فأنا أسلم بأن فمك أجمل، لأن الفم إن كان للقضم، فإنك تستطيع أن تأخذ قضمة أكبر مني.

سقراط: أما بالنسبة لغلظة شفتيّ ألا تعتقد أنهما تمكناني من قبلة أرق وأجمل وأمتع واكثر دفئا!

كريتو: أعلن استسلامي. (٩)

لنتأمل المسلمة التي تنبني عليها تلك المناقشة البسيطة:

هذه المسلمة هي: كل ما هو نافع فهو جميل.

فنحن لا نقول إن العيون جميلة عندما لا تكون حاصلة على قوة الابصار، ولكن فقط عندما تكون لها هذه القوة، ومن ثمة تكون نافعة في الرؤية. وكذلك نقول عن الجسم كله أنه جميل: تارة من أجل الجري، وتارة في المصارعة، ونقول ذلك على كل الكائنات الحية، عن الحصان الجميل، وعن الديك الجميل، ونقول ذلك أيضا على كل الآلات والأدوات. فالسكين جميلة عندما تقطع، والباخرة جميلة عندما تبحر، وهكذا في كل الفنون والصناعات والممارسات العملية والقوانين، فإننا نصف كل هذه الأمور بأنها جميلة على نفس النحو. هذه النظرة للجمال هي التي نجدها في انجلترا في القرن الثامن

---

* المعروف في مصر بأبو جلمبو.

عشر. كتب هوجارث Hogarth في تحليله للجمال في مقالته عن نظرية الفن يقول: في صناعة السفن، فإن أبعاد كل جزء قد أعدت ووضعت بحيث تلائم وتسهل الإبحار، وعندما تبحر السفينة بطريقة ملائمة، فإن البحارة يقولون إنها جميلة. فبين الفكرتين ارتباط وثيق. (١٠)

أما المسألة الثانية فهي المنهج السقراطي القائم على توجيه السؤال من غير إعطاء إجابة، لأنه اعترف بأنه لا يعرف شيئا. يقول سقراط في محاورة تيتياتوس: «إنني مثل القابلة، لا ألد حكمة؛ لأنه لا حكمة عندي، إن مهمتي هي مساعدة الآخرين على الانجاب. فقد اختارتني الآلهة لأقوم بمهنة مثل مهنة القابلة، ولكنها حرمتني الخلفة. فليس عندي أي نوع من الحكمة، وإنما كل صناعتي هي توليد الأفكار من الرجال. إن أسئلتي ساعدت الناس الذين أجادلهم ـ رغم أنهم لم يستفيدوا مني شيئا ـ أن يكتشفوا بأنفسهم كثيراً من الحقائق الرائعة التي تولدت منهم، واستخلصت من أنفسهم وأعماقهم». (١١)

نلاحظ على هذا النص أن سقراط يتحدث عن ميلاد الأفكار في النفس ويصوغها في عبارات مليئة بالإيروس الذي كان يهيمن عليه. وفي اللغة الانجليزية عبارة بالغة الدلالة، فنقرأ قول سقراط مترجما إلى اللغة الانجليزي: The lover of Knowledge is said to have intercourse with realty to bring forth intellgence and truth, and so to find release from "Travail" (12). «ان محب المعرفة يمارس الحب مع الحقيقة لانجاب العقل والصدق، ومن ثمة يجد الراحة بعد أن يفرغ من الشغل».

ونلاحظ ثانيا أن الغرض من البحث عن طريق الجدل بإثارة السؤال والجواب هو تصفية العقول من الكدورات التي تعوق العقل من الوصول إلى المعرفة الحقة، مثل اختلاط المعاني، وابهام الألفاظ، وتمويهات البلاغيين. فغاية سقراط من الجدل هي إعادة نور العقل إلى الناس، وذلك هو الهدف الرئيسي للفلسفة.

فإذا أردت أن تكون سقراطيا فليس عليك أن تتبع أي مذهب أو نظرية فلسفية، إنما عليك أن تكون صاحب موقف من العقل، موقف شديد التواضع العقلي لدرجة الاعتراف بالجهل. فإن السقراطي الحقيقي هو الذي يقتنع بجهله، وجهل النوع

الانساني كله.

لكن اقناع الناس بجهلهم ليس أمرا سارا ولا مريحا، يقول سقراط: عندما كنت أقنع الناس بجهلهم وحماقتهم تنتابهم حالة من الغضب، مني ومن أنفسهم. ومعظم هؤلاء الناس كانوا مستعدين لضربي عندما يرون أن ذهنهم الطفلي قد اختفى كما يختفي الشبح.

بعد المنهج يأتي المذهب. معلوم أن سقراط لعب دورا مزدوجا في تاريخ الفلسفة. فمن ناحية يرجع إليه الفضل في توجيه الفكر إلى مبادىء منهج علمي لدراسة الطبيعة والظاهرات الطبيعية، يقوم على تقسيم وتصنيف الظواهر بقصد معرفتها وتحديدها، أي يقوم على دعامتين هما الاستقراء والتعريف.

ومن ناحية أخرى فإن المنهج السقراطي وضع حدا ونهاية لتوجيه الفكر نحو العلم الطبيعي وبداية مرحلة الاهتمام بالأخلاق في ميدان الفلسفة. ولذلك بدأ الفكر الهلنستي يهمس بأن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، وأصبح هذا القول مألوفا في تاريخ الفلسفة من عهد شيشرون. ومعنى هذا أن سقراط لعب دورا حاسما في توجيه الفكر من النظر في المادة والعالم والظواهر الكونية والفلكية إلى النظر في الانسان وواقعه المعاش وحياته العادية.

لكن الأمر المدهش حقا هو أن سقراط الذي اكتشف أهمية الاستقراء والتعريف، أي طرائق العلم، هو نفسه الذي ترك العلم إلى الأخلاق التي لا يستقيم معها تعريف ولا استقراء، ولا تتطلب دقة علمية.

كلنا نعلم أن الفكر يسير في الاستقراء من ملاحظة الوقائع الجزئية ليقبض على الخصائص الكلية التي تشترك فيها جميع الوقائع الفردية لفئة ما من الموجودات، يمكن أن تكون فئة من البشر أو الأشياء أو الحوادث.

هذا الاستدلال الاستقرائي يمكن أن يختل في أي لحظة لو استحدثت وقائع جديدة، ذلك لأن معرفتنا بكافة الظروف التي تحدث الظاهرة قد لا تكون كافية، وقد لا نستطيع الإحاطة بها جميعا. ومن هنا فالخطأ في الاستدلال الاستقرائي أمر وارد دائما، أو كما يقول المناطقة إن نتيجة الاستدلال الاستقرائي دائما احتمالية، وخاضعة لإعادة النظر.

لكن المشكلة هي أن تقدم العقل من الجزئي إلى الكلي خطوة غير مفسرة، لا تفسرها ملاحظة الوقائع، لكنها تتعداها، لذلك وجب أن يستقر في نفوسنا اعتقاد بأن العقل الانساني لديه ملكة حدسية Faculfy of Intuition تمكنه من رؤية المعنى الكلي بعد تفحص عدد كاف من الوقائع الجزئية.

والاستقراء يقود إلى التعريف، لأن التعريف يتألف من مجموعة الخصائص العامة المشتركة، أنتخبت بطريقة معينة بالعقل، طريقة يلتفت فيها العقل إلى الخصائص الذاتية، ويهمل الخصائص العرضية. مثلا كثير من الناس زرق العيون، يدخنون، لكن تلك خصائص لا مكان لها في تعريف النوع الإنساني.

إنه لمن الخطأ أن نقول إن سقراط اكتشف الاستقراء بمعناه العلمي، لقد كانت عين سقراط دائما ـ وهو يتكلم في الاستقراء ـ على حياتنا اليومية، ولم يرتفع عنها إلى المنطق أو الطرق العلمية، وأهمية الاستقراء. إن هذا الأمر سيقع على عاتق أرسطو.

وكذلك لم يكن هدف سقراط من الاهتمام بالتعريف هدفا علميا، أي بقصد معرفة الاشياء بخصائصها الذاتية، لكن غاية سقراط انصبت فقط على تحديد معاني الأفكار الخلقية والسياسية التي توجه سلوك الناس ويستخدمها الأثينيون من سوفسطائيين وشعراء وأدباء وخطباء ومشرعين في حياتهم اليومية في الأسواق والنوادي والجمعية التشريعية. فالكل يستخدم اصطلاحات عامة لوصف أفكار خلقية مثل العدل والاعتدال والشجاعة والقوة والتقوى والخير. وكان السوفسطائيون يقولون إن مثل هذه التصورات ليس لها أساس يقيني تقوم عليه، وكل هذه الأشياء فضائل لم توهب لنا من السماء، لكنها من فعلنا نحن، تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، ومن عصر إلى عصر. وهكذا بدأ التفكير الجاد حول القوانين التي تحكم السلوك الانساني بالشك في وجود أرضية ثابتة لتلك القوانين.

أما سقراط فقد تصور أن هذه المعاني لو كانت ترجع إلى مبادىء عليا تقوم عليها، فلابد أن هناك لكل لفظ معنى صحيح، وبقية المعاني باطلة. ومن جهة أخرى لو كان السوفسطائيون على حق، وأن قناعتهم صحيحة بأن هذه أمور نسبية خالصة، فإنه من الخطأ أن نستخدم نفس الألفاظ للتعبير عن أشياء مختلفة. فإن لم نتفق على تحديد معاني

ألفاظ مثل الحكمة والعدل والخير ما هي، فإننا سوف لا نستطيع أن نتقابل معا في فكر واحد، أو نتفق على شيء بالمرة.

إن أول الواجبات أن نحدد معاني العدل والحق والخير وكل الفضائل. والطريق إلى ذلك يتألف من مرحلتين: في المرحلة الأولى نجمع أمثلة تطبيقية يتفق المتحاوران على مجال تطبيق اللفظ محل النظر والبحث. فمثلا لو كنا نبحث في التقوى، فيجب أن نجمع أمثلة على الافعال التي توصف بالتقوى، ويتفق عليها الطرفان. وفي المرحلة الثانية نختبر الأمثلة التي جمعناها لنكشف الخصائص المشتركة بينها، والتي من أجلها وصفت الأفعال بالتقوى. فإذا لم يقم بينها خصائص مشتركة، فلا يمكن ولا يصح أن نطلق عليها وصفا مشتركا.

هذه الخاصية المشتركة هي طبيعة الحد أو المعنى الذي نطلق عليه لفظ تقوى. وسوف يعطينا ذلك ـ لو أمكن الكشف عن هذا المعنى ـ تعريف التقوى، مجردة عن الخصائص العرضية للزمان والظروف التي تختلف فيها الأمثلة والأفراد، والتي تندرج تحتها مهما كان الخلاف بينها.

وهذا هو عين المنهج العلمي المستخدم في أي دراسة علمية وفي أي ميدان علمي، كدراسة الحيوان والنبات حيث ينحصر العمل الأساسي لعلماء النبات والحيوان في التصنيف. فالكائنات الحية من نبات وحيوان تندرج تحت اجناس وأنواع genera and species وفقا للصفات المشتركة بينها التي تقع تحت عين الباحث المدقق كخصائص أساسية، برغم أنها تختلف تماما عما تقع عليه عين الرجل العادي.

لم يهتم سقراط بالحيوان أو النبات ولكن اهتمامه انصب على تصنيف وتعريف أفعال الانسان، والمعاني التي نستخدمها كمقياس نقيس به هذه الأفعال.

ويرى سقراط أننا لا نستطيع أن نبحث في معاني الحق والخير والجمال والعفة والشجاعة والتقوى إلا إذا كان قد وقر في ذهننا من قبل معنى هذه القيم والفضائل. فحين تتحدد معاني هذه القيم والفضائل وتستقر في نفوسنا، يصبح لدينا مقياس نقيس به الأشياء والأفعال، وإلا فسوف لا نعرف عما نتحدث، ولا يتفق متحاوران على معنى. فقبل أن نقول: هذا الشيء جميل، يجب أن نعرف أولا ما هو الجمال. ويجب أن

نؤمن ثانيا بأن هذا الجمال الذي يقال على أشياء معنى موجود وجودا حقيقيا؛ لأنه من غير المعقول أن يكون المقياس الذي نقيس به الجمال أو العدل أو أي فضيلة مجرد تخيل. ولذلك فإن لهذه المعاني وجودا مستقلا عن التصور الذهني، وجودا أزليا ثابتا دائما لا يتغير ولا يتبدل، ومستقلا عن كل فكر بشري، وعن كل مكان وزمان.

فالجمال الحقيقي نموذج في ذهننا، وكذلك الخير والعدل كلها نماذج نقيس بها الأشياء الجميلة والأفعال التي تتسم بالخير أو العدل أو الشجاعة أو التقوى. الجمال بالذات، والخير بالذات، والعدل بالذات نماذج patterns أو مُثُل ideals، او معاني ideas أو صور forms أو أصول Origins للسلوك والواقع المعاش.(١٣)

وهذا هو أساس نظرية المُثُل الأفلاطونية الشهيرة التي انبثقت قسماتها الأولى من رغبة وسقراط وبحثه في تحديد معاني اصطلاحات الأخلاق والسياسة، والتماس مبادىء عليا تقوم عليها، وحينئذ يصبح لكل لفظ معنى صحيح، وبقية المعاني باطلة.

كان أفلاطون يؤمن بأن النفس حاصلة في الأصل، وقبل وجودها في هذا العالم، على المعارف، على المعاني الثابتة الدائمة للوجود، وأن مهمتنا هي مساعدة النفس على تذكر تلك المعارف التي نسيتها بعد أن هبطت إلى هذا العالم وتلبست بالجسد واشتغلت بمطالبه ولذاته. فالمعرفة عند أفلاطون ذِكْر، أي ذِكْر لما كانت النفس تعرفه من قبل، والجهل نسيان، أي نسيان لتلك المعارف السابقة.

فسقراط وأفلاطون يؤمنان بوجود معرفة كامنة في النفس يمكن الوصول إليها ومساعدة النفس والناس إما على استخراجها من أنفسهم كما هو الحال عند سقراط، وإما على تذكرها كما هو الحال عند أفلاطون.

لكن ينبغي أن لا يغيب عن ذهننا أن أفلاطون وسقراط يتحدثان هنا عن نوع خاص من المعارف الأخلاقية والميتافيزيقية، كالفضائل والمُثُل، لكن هناك أنواعا من المعارف العلمية كانتشار الأمراض بسبب نوع من الجراثيم أو البكتريا التي لا ترى إلا بالمجهر، مثل هذه المعارف التي تكتشف داخل المعامل والمختبرات لا يمكن أن نكشف عنها بالحوار السقراطي، ونستخلصها من نفوس الرجال.

إن المنهج السقراطي لا يكشف عن معارف جديدة، ولكنه فقط ينفع في تحديد

المعاني التي نعرفها فعلا، وإزالة ما يكتنفها من اختلاف، بسبب غموض الفكر، وغياب التحليل المنطقي.

فكل واحد منا عندما نسأله: ما العدل؟ نجد لديه شيئا ما يقوله أو يعرفه عن العدل. ومهمتنا كفلاسفة هي امتحان كل هذه الأقوال والمعارف التي يقولها الناس عن العدل، واستخداماتهم المختلفة لهذه الكلمة. والنتيجة التي نخلص منها دائما هي كشف لغوي، أو بمعنى آخر تحديد مفهوم لفظ عدل، وليس كشفا في علم الأخلاق. (١٤)

وكذلك ينبغي أن لا يغيب عن ذهننا أيضا أنه من الصعب أن نلزم أنفسنا الموضوعية في تحليل وتحديد المعاني القيمية، أي المعاني التي تعبر عن قيمة كالخير والعدل والجمال والتقوى. فعندما نسأل: ما العدل؟ تجد الناس في الحال تأخذ موقفا من الصراع الاجتماعي: فمن قائل: إن العدل هو طاعة قوانين البلاد، ومن قائل: العدل هو طاعة قوانين الطبيعة التي هي دائما ضد قوانين البلاد، أو العدل هو ما يراه الأقوى، أو العدل هو حيلة الضعيف لقهر القوي. وكلها تعاريف لا تلتزم التحليل العقلي المنطقي الخالص للفظ. (١٥)

والفضيلة علم، والرذيلة جهل، هذا قول مشهور عن سقراط يدل على مبلغ ايمانه بالعقل وحبه للخير. والانسان يريد الخير دائما، وينأى عن الشر. فمتى علمنا الخير أردناه حتما، فالعلم هنا قوة دافعة للعمل. أما الشر فلا يصدر منا إلا بسبب جهلنا، ولو علمنا حقا أنه شر ما اخترناه وما فعلناه، فلا أحد باختياره شرير، ولا يوجد إنسان يلحق الضرر مختارا بأغلى ما يملكه، ونعني به نفسه. فالانسان العاقل لا يرتكب الآثام والذنوب عامدا. نحن نعلم أن كل الدنايا والأفعال الشريرة والوضيعة ترتكب دون اختيار. إن اختيار الشر وارتكابه طريق إلى التعاسة والشقاوة. وعلى ذلك فكل من يرغب الشر عامدا يجب أن نعتبره جاهلا، يجهل حقيقة فعله، ويجهل أنه شر. مثل هذا الانسان يجب أن نساعده برفق؛ لأن خطأه غير مقصود.

إننا لو استطعنا أن نعلم حقيقة طبيعتنا البشرية، ونعلم الهدف الحقيقي لحياتنا، فإن هذا العلم هو الذي يمنحنا الرضى والسعادة ويدلنا على الخير الملائم لطبيعتنا

دائما.

هذه العلاقة الحميمة بين الفضيلة والعلم خاصية من خصائص الفكر الفلسفي عند سقراط وأفلاطون، وإلى حد ما توجد في كل الفكر اليوناني الذي يختلف تماما في هذه المسألة عن مفهوم الديانات السماوية الثلاث من يهوديةومسيحية وإسلام. ففي هذه الديانات تستلزم الأخلاق القلوب النقية التقية، وهي موجودة عند العالم والجاهل على السواء. فليست القلوب الطاهرة وقفا على العلماء، بل هي أيضا عند الأميين سواء بسواء، يستوي فيها العالم والجاهل. (١٦)

«اعرف نفسك» قول مشهور لإلهة دلفي، وواجبنا الأول هو طاعة الآلهة. وفور أن نعرف أنفسنا ندرك الطريق الصحيح للعناية بها، وبغير ذلك، يستحيل علينا أن نفعل. يتساءل سقراط: كيف يمكن أن نعرف أنفسنا على حقيقتها؟ علينا أن ننظر في الجانب الذي يكمن فيه فضيلتها. وفضيلة النفس عند سقراط هي الحكمة، أو أل Sophia أي الفلسفة، أو المعرفة.

المعرفة فضيلة الفضائل، وهي فضيلة مشتركة بين الناس جميعا. ففضيلة الإسكافي هي المعرفة، معرفة الغرض من الحذاء، ومعرفة صنع الحذاء. وفضيلة الطبيب هي المعرفة، معرفة الجسم وأمراضه، ومعرفة طرق العلاج. وهكذا في سائر الصناعات والفنون. أما فضيلة الانسان من حيث هو إنسان ـ لا من حيث هو صاحب فن أو صناعة ـ فهي المعرفة ايضا، لكنها معرفة الحق والخير والجمال والتقوى وكافة القيم والفضائل التي توجه سلوك الانسان، والتي يهمل الأثينيون العناية بفهمها ومعرفتها.

وكان على سقراط مهمة قاسية: هي أن يعرّف الأثينيين بجهلهم بتلك الفضائل، وبالتالي بجهلهم بأنفسهم على حقيقتها، وبأن عنايتهم بالمال والشهرة تؤكد هذا الجهل. (١٧)

والنفس باقية بعد الموت، تعود إلى بارئها وعالمها الذي جاءت منه. ولا ينبغي أن نخاف الموت. فالخوف من الموت في معركة أرادتها الدولة عار، وأشد من هذا العار الخوف من الموت الذي أراده الله لنا. فإن هذا الخوف يعني عدم الرضا بإرادة الله، تلك التي وهبتنا الحياة والنَّفْسَ والنَّفَسَ.

وقد يكون الخوف من الموت دلالة على حكمة، ولكنه ليس كذلك؛ فإن هذا الخوف يعني أننا نعلم حقيقة الموت، في حين أننا لا نعلمها. فلا أحد يعلم ما إذا كان الموت هو أعظم الخيرات للإنسان أم هو شرا مستطيرا. ومع ذلك فالناس تخاف الموت وكأنهم يعلمون تماما أنه أعظم الشرور.

إن أولئك الذين يعتقدون أن الموت شر مخطئون. فلننظر إلى الموت بطريقة أخرى؛ فربما نشعر شعورا قويا بأنه خير.

الموت واحد من أمرين: إما أن يكون الموت عدما محضا، فلا يعد للميت وجود ولا إحساس، وإما أن يكون هجرة للنفس من هذا العالم إلى عالم آخر.

فلو كان الموت فقدانا تاما للاحساس، ونوما هادئا لا يعكره حلم، فلابد أن يكون الموت نعمة كبرى، وبركة عظيمة. إن مثل هذا النوم الهادىء الذي لا يعكر صفوه حلم قلما يتوفر في حياتنا لأحد. حتى الملوك المنعمين تعد لياليهم الهانئة في النوم على أصابع اليد لو قيست بلياليهم المزعجة.

فلو كان هذا هو الموت فأنا اعتبره ربحا عظيما. في هذه الحالة فإن الزمان كله سوف يبدو وكأنه ليلة واحدة.

أما لو كان الموت نوعا من الهجرة لمكان آخر، وأن الأقاصيص الشائعة صادقة بأن كل الأموات هناك، فماذا يمكن أن يكون هناك شيء أبدع من هذا وأجمل. سوف تكون رحلة جميلة ممتعة، تلك التي تأخذ الإنسان إلى الجنة حيث نجد القضاة الذين اشتهروا بالنزاهة والعدل في حياتهم، والشعراء والأنبياء والحكماء الذين ملأوا الدنيا بأعمالهم الخالدة من أمثال أورفيوس، وهوميروس، وهزيود.

فأنا نفسي سوف أجد أمتع الأوقات هناك، وألتقي بالمظلومين الذين دفعوا حياتهم في هذه الدنيا ثمنا لاتهام باطل مثلي، لأقارن بين تجربتهم وتجربتي. وفوق ذلك كله فسوف امتحن الناس في الجنة مثلما أمتحنهم هنا؛ لأتبين من هم الحكماء، ومن هم الأدعياء، واستجوب كبار قادة الحروب الماضية، وأعرف وقائع المعارك الحربية التي مرت عليها آلاف السنين.

إنها سوف تكون سعادة غامرة أن أناظر هؤلاء الناس وامتحنهم. وسوف لا يكون في

مقدورهم الحكم بإعدامي مرة أخرى. فميزة سكان الجنة علينا أنهم خالدون أبد الدهر إن كان ما يقال لنا حق.

ثم كانت عبارة سقراط الأخيرة لتلاميذه قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام بشرب السم:

«الآن حان الوقت، لابد أن نذهب: أنا إلى الموت، وأنتم إلى الحياة، لكن أينا ذاهب إلى مصير أفضل، أمر غير معلوم لأحد إلا الله»(١٨).

إن قراءة هذه الفقرة تدلنا على طعم هذا الرجل الذي حيّاه كل الناس.

حيّاه الملحدون لأنه قرر بأن ادعاء معرفة ما بعد الموت ادعاء لشيء غير معلوم لنا.

أما المؤمنون فقد تأثروا دائما به، وتعاطفوا معه؛ لأنه كلما يتحدث عن الموت يقول إنه خير.

تلك هي القسمات الرئيسية لفلسفة سقراط تبدو لنا نوعا من الرؤى، وبعثا للنشاط والحيوية الفكرية في الناس. ثم جاء أفلاطون ليبني السقراطية كمذهب، ويقيمها فلسفة رفيعة العماد.

ومع ذلك فإن تلك الرؤى تعكس تفكيرا رائدا. فقد كان سقراط أول من نبه إلى ضرورة الاشتغال بضبط الفكر الأمر الذي جعل أرسطو يلتفت إلى أهمية قيام علم يقنن الفكر ويميز صحيح الفكر من فاسده، فكان أن اكتشف أرسطو علم المنطق.

كذلك كان تفكير سقراط أول محاولة لإرساء قواعد منهج فلسفي للأخلاق. أن سقراط قدم للأخلاق بقوله: «الفضيلة علم» ما قدمه بارمنيدس للأونتولوجيا بقوله: «الوجود موجود». فكل منهما حول الفلسفة إلى وجهة جديدة، وكل منهما ترك للخلف العمل على تحليل القضية البسيطة واختبارها لإظهار ما تنطوي عليه من تصورات، واستخدام اللفظ الواحد لمعاني متعددة، وكل منهما أكد المطلق والعام بنوع من اليقين ظلت الفلسفة لا تستطيع له ردا إلى يومنا هذا.

مراجع البحث ومصادره:

1- Burnet, *J. Greek Philosophy,* Thales to Plato, pp. 126-150, Macmillan, 1962.

Juthrie, W.KC., *A History of Greek Philosophy,* V.3 pp.325-376. Cambridge University Press, 1975.

Russel, *B., History of Western PHilosophy,* p.104, George Allen and Unwin, First Published in 1946.

2. Gigon, O., Review of Magathaes – Vilhena, *le probleme de Socrate,* Gnomon, 1955, pp. 259-66.

3. Schweitzer, *A., The Quest of the Historical Jesus,* 3rd ed. London 1954.

4. Gethrie, pp. 359-375

5. Ibid, pp. 359-375

6.Russel, P.110

7. Guthrie, pp.398-402.

8. Ibid, pp. 402-405.

9. Ibid, pp. 386-390.

10. Hogarth, W., *The Analysis of Beauty,* ed. Bruke, Oxford, 1955.

11. Plato, *Theatetus,* 150c-d, Tras. Cornford.

12. Guthrie, p.444

13. Burnet, pp. 154-170.

14. Russel, pp. 112-113

15. Guthrie, pp. 430-442

16. Russel, p.111

17. Guthrie, pp. 467-473.

18. Ibid, pp. 473-484.